محاضرة رقم 10

الموسيقى والهوية:

مما لا شك فيه أن الموسيقى تأثرت بالعولمة وذلك من خلال التواصل والإعلام، لكن هذا لا يمنع أنها حافظت على أصالتها حتى وإن لم تكن بنسبة 100% إلا أنها استطاعت أن تحتفظ بمساقها الفني الذي بنيت عليه في الأساس. فهذا التراث الموروث والهوية الثقافية من خلال الموسيقى تعتمد على الانفعال الحسي والارتجال مع بعض اتجاهات هذا التواصل، إلا أن أغلب الفرق الموسيقية الجزائرية استطاعت أن تتأقلم مع أغلب وسائل الإعلام، في كيفية النشر والتسويق لهذا التراث وحتى استغلاله ضمن قضية التنمية السياحية مثل ما قدمته فرقة أهليل بتيميمون، وفرقة السبيبا بجانت.

وعندما نتحدث عن الهوية الثقافية من خلال الموسيقى، يجب أن نوضح هذه العلاقة الهامة، إذ يبين هذا علي الضو علي أن الموسيقى جزء من الثقافة أو جزء له وظيفة محددة وأنها تستمد معناها من الثقافة، وإذ أخذنا في هذا الاعتبار أن الإنسان ليس فقط مستهلك لهذه الثقافة بل يعتبر منتجها الأول داخل الجماعة التي يعيش فيها، ودائم الاستمرار في الإبداع والزيادة على ما وصله من أجداده، بشرط الحفاظ على المميزات الأساسية لهذه الموسيقى، لأنها في حقيقة الأمر هويته الأساسية التي يستطيع من خلالها الحفاظ على الذات الثقافية، فالهوية الموسيقية هي الإحساس أو الصفة التي يطلقها الموسيقي على نفسه وهي ناتجة عن الوعي الذاتي الذي من خلاله يريد أن يكون أو يؤسس لنفسه كيانا فرديا أو جماعيا، تكون فيه الخصوصية الموسيقية مميزة عن الآخرين.

ومن خلال تعريف الهوية الثقافية الذي قدمته اليونيسكو، على أنها أولا وقبل كل شيء تعني التعريف التلقائي: بأننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية لما لها من قيم تميزها بذلك، راجع إلى أن اللهجة أو اللغة المحلية الجامعة للأفراد سمة تكاد تكون أولى مراجع الهوية، وهذا ما نلاحظه في الموسيقى التي تعتمد اللغة المحلية أو اللهجة التي تعتبرها أساس التواصل بين أفراد المجتمع، إذ أن اللهجة تمثل الخصوصية المنبثقة عن الهوية، والهوية تساعد على معرفة الانتماء.

وتتضمن هذه اللهجة أو اللغة الأسلوب الذي من خلاله يتم استيعاب هذه الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأساليب حياتها والإحساس بالمشاركة، أي أنها الطريقة التي يظهر من خلالها هاته الجماعة الذات الكلية المشتركة، بحيث يمكن مشاهدة الانطباعات الخاصة بصفة دائمة السيرورة، وبالتالي يمكن بناء شخصية من خلال التعليم والتعبير، وهذا الاخير الذي يعني مجموعة من التأثيرات الانفعالية التي تضفي على المضمون الجمالي لأي عمل في دلالة وجدانية خاصة، تختلف باختلاف الذكريات والارتباطات التي تتولد في الذهن لهذا العمل، وحسب هذا المفهوم تغدو الموسيقى ذات بنية ثقافية فاعلة، متغيرة إلى مزيد من الثراء بفضل الإنتاجية الإبداعية للمجتمع.

فالعمل الموسيقي في غالب الأحيان يحمل أكثر من هوية، هوية الناس، وهوية اللحن، ثم هوية الصوت، هذه العناصر تتمازج في بناء جزء مهم من هوية الفرد الموسيقية وذلك يعكس السلوك المهم في بناء المجتمع، فهنا الهوية هي تخيلات فردية تجعل الموسيقي يفكر ماذا يريد أن يكون وماذا يطمح.

فالهوية الموسيقية تشبه البصمة فهي خالدة عبر الزمن، وسمة تميز النوع الموسيقي، وإن حدث تغير فذلك بعد مرور زمن طويل، وهكذا فالسمات الثقافية للموسيقى لها القدرة على الانتقال عبر الزمن وذلك عن طريق الأجيال.

إن الهوية الموسيقية تحمل القيم والاتجاهات والأفكار التي هي أساس العمل الفني دون الاهتمام بالحدود الزمانية أو المكانية، لأنها تعبر عن المجموعة في أحقاب زمانية مختلفة، وعن أنماط الحياة الاجتماعية، وعن خصائص هذه الهوية الموسيقية.

<u>الهوية والتراث الفني:</u>

يدخل التراث الفني في تشكيل تاريخ الأمم والحضارات لأنه يعبر عن هوية مجتمع ما، وذكرت موسوعة الفلسفة العربية أنه في علم الاجتماع تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي بأن يشعر بالهوية مع أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه وهو ما يسميه جورج ميد باسم تعميم الغير واندماج الذات فيه.

وهذا ما يعبر عنه بالانتماء ويعني انتماء الفرد إلى مجتمع معين محدد له سمات خاصة تميزه عن غيره من المجتمعات في عاداته وتقاليده وثقافته وغير ذلك من معالم الخلاف الكثيرة بين المجتمعات.

ومن الطبيعي حياتيا والبديهي فكريا أن الإنسان ينتمي إلى مجتمعه ويحسن أن جذوره ممتدة في هذا المجتمع وأنه جزء من كل، ما دامت الحياة تسير مسيرتها المعتادة.

إن البحث في الهوية ينطلق من نقد الذات أولا وذلك بغية الوصول إلى المعرفة لأن نقطة الانطلاق النقدي المحكم هي وعي المرء لما هو حقا وهو اعرف نفسك.

لأن المعرفة بالموروث الثقافي تؤدي إلى إيقاظ الوعي بالهوية التي هي إحساس بالانتماء من حيث المبدأ، فالإحساس بالهوية هو إثبات الوجود في حومة الصراع وخصوصا أمام هجمات الآخر الذي جعل همه إلغاء هذا الوجود أو تجاهله أو تشكيله على الصورة التي يجب أن تكون عليها.

وفي سبيل إحياء الهوية القومية يجب العمل على إحياء التراث الفني بكل فروعه، إحياء و حفظا، هذا التراث الضخم الذي رأى فيه بعض المفكرين المعاصرين أساسا مقبولا بل ضروريا لإحياء الهوية القومية و تثبيتها و نشر الفكر المتعلق بها و المؤيد لها، لأن التراث الفني بوصفه مرجعا يفصح عن خصوصية الهوية المحلية مقابل الهوية الشاملة (الوطنية) دون أن يكون أحدهما معارضا للآخر بل إنه مكمل داعم له، وربط بعض الباحثين بين التراث الفني والهوية الثقافية فالباحث محمد رجب السامرائي يرى أن أمة بدون تراث لا قيمة لها لأن هويتها القومية تستمدها من الجذور الموغلة في الماضي لتمنحها ديمومة البقاء وقبسا من عمر الخلود عبر توالي الأيام.

إن العناية بالتراث الفني ترتبط بغاية قومية شاملة فحواها إحياء الإحساس بالانتماء إلى الأمة الوطنية، وتغذية هذا الإحساس يفيض من المشاعر الموحدة المتولدة من التاريخ والأرض والأصل المشترك، والحضارة الواحدة ذات القيم الإنسانية النبيلة.

إن فهمنا عمليا لواقع الهوية من أهم الأسس في عمليات التنمية الناجحة، ومفهوم الهوية متعدد الجوانب والمستويات، يرتبط بمفهوم الناس وتصوراتهم لأنفسهم وهو مهم في حياتهم، فالهوية

الثقافية تضع الحدود المميزة لنا كأفراد، وتتضمن التنمية الذاتية التي نرسم من خلالها ملامح مميزة لأنفسنا ولعلاقاتنا مع من حولنا.